حروب الردة
دراسة نقدية فى المصادر
الياس شوفانى
دار الكنوز الأبدية
بيروت ١٩٩٥ - ٢٢٤ صفحة

يشير مصطلح (حروب الردة فى التاريخ الإسلامى) إلى الحرب التى اشهرها أبو بكر الصديق الخليفة الأول على تلك القبائل التى إنسلخت عن الإسلام بعد وفاة النبى محمد (ص) وذلك بغية إخضاعها لسلطة دولة الإسلام فى المدينة، ويرتكز هذا التناول على افتراضين ضمنيين:

الأول: إن النبى محمد قد نجح فى هداية غالبية القبائل العربية إلى الإسلام فى حياته ولكنها ارتدت عن الدين بعد موته فلزم قتالها لإعادتها إلى الهداية.

الثانى: إن الردة كانت حركة دينية وبالتالى، فإن حروب الردة أتت منفصلة عن حركة الفتوح العربية.

وقد تعرض كل من هذين الإفتراضين إلى الطعن من قبل المؤرخين فى العصر الحديث هذا ويمكننا القول بأن ما أوردته المصادر التاريخية بهذا الصدد يمثل أحد المحاور الهامة للقيام بمراجعة موضوعية لما هو شائع حول مصطلحى «الردة» و «حروب الردة» وهو أمر بات ملحا خاصة فى ظل ما تشهده الساحة من إستقطاب حاد بين التيارات الفكرية والسياسية، يمثل فيه الإتهام بالردة والتكفير أحد الأسلحة المشهرة على نحو مكثف وواسع النطاق:

وتساهم الدراسة التى بين أيدينا مساهمة جادة فى هذا الإطار، فهى ليست سردا لأحداث حروب الردة مع أن هذه لأحداث لا تغيب عنها بالطبع وإنما هى بالجوهر محاولة إستقصاء لخلفياتها وتدقيق لوقائعها، وهى لا تقوم على إكتشاف مصادر جديدة وإنما على تمحيص دقيق للمعلومات المتوفرة فى المصادر التقليدية وهى كثيرة.

وقد اعتمد المؤلف المنهج البنائى حيث صب جهده على إستخلاص أطروحة متماسكة حول القضايا التى عالجها، بالإستناد إلى الروايات المختلفة بعد تمحيصها ومقارنتها بالروايات الأخرى، وذلك من منطلق إن تلك الروايات مجزئة وليست مختلقة كما يطرح بعض المؤرخين كما أنها ليست كاملة ودقيقة كما يراها آخرون:

وسنركز فيما يلى على ما طرحه الكاتب بخصوص الإفتراضين السابقين، كما سنتناول أهم ما عرضه من رؤى وتحليلات متعلقة بتلك الفترة من التاريخ الإسلامى:

أولا: حول مدى نفوذ الرسول فى الجزيرة العربية:

إنتهج الكاتب فى مناقشته للموضوع، على تقسيم الجزيرة العربية إلى أربع مناطق جغرافية، الحجاز، نجد، المناطق الساحلية والشمال... موضحا أن الرسول كسيد على الحجاز تمتع بقوة لا يضاهيه فيها أحد فى الجزيرة العربية فى حينه، وإن إنضواء المدن الرئيسية الثلاث فى الحجاز - مكة - المدينة والطائف - قد أعطاه قوة كبيرة ، وإن هذه القوة وما أضفته من هيبة دفع العديد من زعماء القبائل لطلب العون منه فى صراعاتهم مع منافسين محليين أو مجاورين.

أما فى نجد فقد كانت هناك عدة مجموعات من القبائل، أقواها وأهمها بنى حنيفة، وفى حياته لم يبسط الرسول سلطته عليهم، أما بالنسبة إلى تجمعات عطفان وطيئ وأسد فيرجح الكاتب أن الرسول قد توفى قبل استكمال السيطرة عليهم، وفيما يخص قبيلة تميم فهى لم تعلن اعتناقها الإسلام فعلا فى حياة الرسول: وإجمالا يمكن القول أنه فى نجد لم يكن نفوذ الرسول قد تكرس تماما قبل وفاته، فالقبائل الصغيرة المتشاحنة لم تجد مناصا من الإنحياز إلى المدينة، لقد كانت تندفع

نحو الرسول دون استخدام القوة معها، إذ كانت الصراعات بينها عاملا هاما فى سلوكها تجاه المدينة فبعدها النسبى عن مقر السلطة الجديدة فى الجزيرة أتاح لها درجة أعلى من القدرة على المناورة مقارنة بالقبائل فى الحجاز، كذلك فإن الدوافع وراء انحياز بعض تلك القبائل إلى المدينة تفسر درجة أعلى من القدرة على المناورة مقارنة بالقبائل فى الحجاز ، كذلك فإن الدوافع وراء إنحياز بعض تلك القبائل إلى المدينة تفسر ولاتها المتأرجح للرسول، ولم تكن للمدينة سيطرة مباشرة على تلك القبائل وظل زعماؤها يديرون شئونها، وجاءت وفاة الرسول وما ترتب عليه من خلافات داخل الجماعة الإسلامية حول الخلافة ليشجع تلك القبائل على الإنكفاء على ما توصلت إليه من علاقات مع المدينة.

وبالنسبة للمناطق الساحلية من الجزيرة العربية، البحرين، عمان، واليمن، فالغالب أن ملوكها بادروا من تلقاء أنفسهم بالإتصال بالرسول ذلك إنهم كانوا يبحثون عن سند خارجى للحفاظ على مواقعهم بعد ما فقدوا مساندة فارس لهم خاصة وإنه قد قام لهم فى تلك الآونة سادة محليون منافسون لهم: ولا يستبعد أن يكون هؤلاء الملوك قد وجدوا أن من الأفضل لهم تحويل الإتاوة التى كانوا يدفعونها للشاه الفارسى إلى المدينة، إلا إنه يشك فيما إذا كانت أى من تلك المناطق عدا نجران المسيحية دفعت ضريبة ما للمدينة فى حياة الرسول، والسرعة التى غادر بها عمال المدينة هذه المناطق فور ورود نبأ وفاة الرسول وإندلاع الثورة ضد حلفائهم تشير إلى ضعف هؤلاء وبالتالى عجزهم عن الصمود فى وجه إنتفاضة القبائل، فعندما عقد هؤلاء «الملوك» إتفاقات مع الرسول كانوا قد فقدوا السيطرة على مناطقهم كما تبرهن على ذلك الأحداث خلال ما سمى «حروب الردة» فى تلك المناطق، حيث كان غالبا الطرف المتحالف مع المدينة يمثل أقلية ومن ثم كان دائما فى موقف الدفاع فى مواجهة الأغلبية، ومما سبق يصعب التأكد من إن تلك المناطق كانت تحت نفوذ المدينة فى حياة الرسول.

وفيما استحوذ الشمال والطرق المؤدية إلى الصحراء الروسية على إهتمام الرسول بعد فتح مكة، فإنه لم يشغل باله كثيرا بالجزيرة خارج الحجاز، ولعله كان على ثقة من إنها ستخضع لسلطة المدينة دون قتال، إذا استمر الصراع بين القبائل، وبينما لم يرسل النبى جيشا إلى اليمن أو اليمامة (حتى بعد أن وصلته أخبار تمرد الأسود ومسيلمة فى كل من هاتين المنطقتين على التوالى) فقد سار بنفسه على رأس أكبر غزوة جهزها فى حياته إلى تبوك، وفى تبوك تحقق الرسول من أن جيشا قليل العدة بعيدا عن دياره كجيشه لا يستطيع المجازفة بمواجهة مع البيزنطيين أو حلفائهم من العرب. فالحملة إلى تبوك كانت على ما يبدو محاولة سابقة لأوانها لغزو سوريا لكنها تركت أثرا ملفتا من استعراض القوة، الأمر الذى حدا ببعض التجمعات القبلية على الحدود السورية لعقد معاهدات مع الرسول ودفع الجزية له، فيما ظلت القبائل الكبيرة فى سوريا مثل غسان، بهراء، ولخم معادية للمدينة.

ثانيا : الردة وحركة الفتوح العربية

هذا وإذا كنا قد رصدنا ما خلص إليه الكاتب حول المدى الذى وصله نفوذ الرسول فى الجزيرة العربية، فإن مراجعة كتابات الرواة المسلمين توضح أنهم نظروا إلى كل المناوئين لدولة الإسلام فى المدينة بعد وفاة الرسول مباشرة على إنهم مرتدون، وبالتالى أسموا القتال ضدهم «حروب الردة»، وهو ما تعرض للطعن من جانب مؤرخين فى العصر الحديث حيث اعتبروا أن أحداث الردة كانت إنشقاقا عن قيادة المدينة السياسية، وإن عداء القبائل كان موجها ضد عمال المدينة وليس ضد إلههما أو ديانتها، منوهين هنا إلى أن غالبية الذين اعتبروا مرتدين لم يعتنقوا الإسلام سابقا.. إلا أن

تتبع الأحداث والوقوف على ملابساتها اعتمادا على ما نقلته إلينا المصادر التاريخية المختلفة يوضح أن الحركات المتعددة التى قمعها جيش المسلمين فى خلافة أبى بكر كانت مختلفة عن بعضها البعض، وإنها لم تكن جبهة موحدة، بل ويصعب القول أنه كانت بينها علاقة ذاتية ما.

ومن جانبه اعتمد الكاتب فى تقسيم تلك الحركات، معيار ما إذا كانت الفئة المعينة عقدت اتفاقا مع الرسول ثم إنتهكته بعد وفاته - وهو تصنيف له ما يوازيه فى مصادر تقليدية - مصنفا إياها إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: وتضم الحركة فى نجد حيث الزكاة كانت المسألة الرئيسية وهى يمكن أن تسمى وبحق ردة : ردة بمعنى أن الإتفاقات التى عقدت مع دولة الإسلام فى المدينة قد انتهكت، حيث كانت القبائل هناك قد عقدت اتفاقات مع الرسول وقبلت أداء الزكاة، إلا إنها انتهكت ذلك وأدارت ظهرها للخليفة أبى بكر. والمصادر تتحدث هنا عن قدوم هذه القبائل إلى المدينة للتفاوض مع أبى بكر، حيث طلبوا الإعفاء من أداء الزكاة، وتعهدوا بإقامة الصلاة، لكن أبا بكر رفض هذا الطلب، وإذا صحت هذه الرواية، فإن هذه القبائل كانت ترغب بالتحالف مع المدينة، ولكن دون الإلتزام المالي، وتجمع المصادر على قول أبى بكر «والله لو منعونى عقالا لجاهدتم عليه» وبإصرار أبى بكر على جباية الزكاة وإمتناع القبائل عن أدائها لم يبق من خيار إلا الإحتكام للسلاح ، وهذا ما حصل فعلا.

الفئة الثانية: وهى حركة بنى حنيفة، حيث كانت المسألة تتمحور حول نبوءة الرسول وسيادة المدينة فى الجزيرة، ولا مبرر هنا لتسمية حركتهم ردة، حيث لم يسبق لهم عقد اتفاقات مع المدينة، كما لم يتعهد أهلها بأداء الزكاة ولا هم أعلنوا إسلامهم.

الفئة الثالثة: وهى مجموعة الحركات فى المناطق الساحلية (البحرين، عمان، اليمن) حيث الصراع على السلطة بين الزعماء المحليين كان هو المسألة الرئيسية وهنا أيضا لا يمكن اعتبار أي منها ردة. ففى هذه المناطق الثلاث لم ينتهك لا حلفاء المدينة ولا منافسوهم، إتفاقا معقودا مع المدينة.

ويعرض الكاتب أيضا لارتباك المصادر التارخية فى إطلاق مصطلح الردة على الحركات فى الجزيرة بعد وفاة لرسول مشيرا إلى أن ما سمى «بحروب الردة» يندرج فى عملية عسكرية واحدة مع حركة الفتوح العربية، التى كانت ترمى إلى بسط سيادة الدولة الإسلامية فى المدينة على كل العرب فى الجزيرة والصحراء السورية أيضا، منوها بأن المؤرخين قد أهملوا أسباب تلك الحركات، واهتموا أصلا بتعليل الحرب ضدها، وقد انتهت هذه الحرب فى فترة قصيرة وكان هدفها المركزى إخضاع القبائل، وذلك بغض النظر عن علاقتها السابقة بالمدينة ومن ثم كانت حربا واحدة ضد جميع الحركات فى الجزيرة آنذاك، لكن مصطلح الردة طغى عليها. وهذا المصطلح الذى أطلق على الحرب أسبغ أيضا على المحاربين.. وهو ما يعنى أن مصطلح الردة استعمل بشكل غير دقيق من قبل المؤرخين المسلمين إلا أنهم كما يبدو لم يقصدوه بالمعنى المعقد والمفصل الذى أعطاه إياه الفقهاء، ولكن بعد وقوع الخطأ قام المحدثون، الفقهاء، أصحاب كتب الفرق، والمنتمون إلى التيارات السياسية، وغيرهم بتطويع المصطلح لخدمة مواقفهم، والغالب أن منشأ المصطلح هو للدلالة على القبائل المقيمة إلى الشمال الشرقى من المدينة - عطفان طيئ وتميم - والتى قصرت فى الوفاء بإلتزاماتها تجاه دولة الإسلام، وجاء الرواة والمؤرخون المبكرون، ليطلقوا المصطلح وبشكل غير دقيق، على كل الحركات فى الجزيرة - خاصة وإن الحرب ضدها كانت واحدة، وتمت فى وقت قصير جدا ثم جرى تطويع هذا المصطلح ليخدم أغراض

الفقهاء فى آرائهم وحواراتهم، وبمضمونه هذا، أى كما صاغه الفقهاء، جرى تعميمه على أيدى المؤرخين اللاحقين.

عرض : علاء قاعود

حول الخيار الديمقراطى
دراسات نقدية
برهان غليون وآخرين

مواطن المؤسسة الفلسطينية
لدراسة الديمقراطية ، رام الله
سلسلة دراسات وأبحاث ١٩٩٣
٢٢٦ صفحة

هذا الكتاب القيم «حول الخيار الديمقراطى.. دراسات نقدية» حصيلة جهد لأربعة مؤلفين ينطلقون من أرضية مشتركة هى حتمية الخيار الديمقراطى للإنسان العربى، فالديمقراطية هى الإطار المرجعى الذى يهيمن على هذا العمل، ويربط بين فصوله الأربعة التى يمثل كل منها تصويرا للمشهد الديمقراطى من زوايا مختلفة.

فالفصل الأول لجورج جقمان «الديمقراطية فى نهاية القرن العشرين.. نحو خارطة فكرية» تمثل لقطة بانورامية شاملة للمشهد الديمقراطى فى العالم يظهر فيها ثلاثة محاور أساسية، هى المحور المؤسسى الغربى، والمحور النقدى الراديكالى، والمحور العربى .

والفصل الثانى لعزمى بشارة بعنوان «مدخل لمعالجة الديمقراطية وأنماط التدين» يمثل لقطة مقربة لعلاقة الديمقراطية بالتفسيرات والممارسات المتباينة التى تنطلق من مرجعية دينية على مستوى كل من المؤسسة الدينية الرسمية، والحركات الإسلامية، والدين الشعبى، باعتبارها جوهر الإشكالية - الأزمة التى تعوق إقرار الديمقراطية كمرجعية عليا فى المجتمعات العربية.

والفصل الثالث لبرهان غليون بعنوان «الديمقراطية العربية : جذور الأزمة وآفاق النمو» يمثل لقطة متوسطة للمحور العربى بأكمله تتضح فيها تفصيلا إشكالياته المتباينة ومظاهر الصراع العنيف والحاسم بين الخيار الديمقراطى والخيار الفاشى الجديد الذى يتستر وراء الخوف على الديمقراطية من أجل تبرير إغتيالها فى المجتمعات العربية.

والفصل الرابع لسعيد زيدانى بعنوان «الديمقراطية وحقوق الإنسان» يمثل لقطة مقربة جدا للإنتهاكات الصارخة لحقوق الانسان العربى باعتبارها أنعكاسا لتغيب الديمقراطية فى عالمنا العربى من قبل الحركات السياسية الرئيسية، القومية والماركسية والإسلامية الأصولية.

والكتاب فى عمومه يطرح من الأسئلة حول إشكاليات الديمقراطية العربية أكثر مما يطرح من إجابات، إذ أن أسئلة الديمقراطية أصعب من أن يجيب عليها عدد محدود من الأشخاص.

خريطة الديمقراطية

يرى جورج جقمان أن المحور المؤسسى الغربى يعبر عن وجهة نظر المؤسسات الحاكمة والمتنفذة فى المجتمعات الغربية تجاه الديمقراطية، حيث تلازم الديمقراطية النظام الرأسمالى تلازما لا إنفكاك منه، بحيث يصبح الترويج للديمقراطية فى جوهره ترويجا لإزالة أية احواجز موجودة، سياسية كانت أو اقتصادية أو ثقافية أو عسكرية أمام سيطرة الدولة الغربية الرئيسية على نظام عالمى تقبع على رأسه الولايات المتحدة الأمريكية التى تتطلب مصلحتها فى العالم الثالث أنظمة لها قدر من الإستقرار ومقدرة على منع تغيير جذرى يخرج دول العالم الثالث من نطاق تبعيتها، مما يجعلها ترحب منذ